

# صورة المرأة القبائلية في روايات مولود فرعون

أ. سامية داودي

جامعة تيزي وزو

أشار مولود فرعون إلى وضعية المرأة القبائلية إشارات طفيفة حيناً، وملحة حيناً آخر: واقعها المرّ، حياتها العسيرة، قصورها حتّى وإن بلغت سنّ الرشد، قلبها السليم، سذاجتها، أفكارها المحدودة<sup>(1)</sup>.

المرأة القبائلية إذن لا تزال إنساناً قاصراً، في حاجة إلى دليل أو وليّ أمر، ولا سيما إذا كانت يتيمة ووحيدة.

توفّر نانا وخالتي أسباب العيش وحدهما ولا تعتمدان في ذلك إلا على مهارتهما الكبيرة في ممارسة صناعتي الفخار والنسيج، ورغم ذلك تبقيان قاصرتين في حاجة إلى حماية رجل، وهنا رمضان.

والى جانب القصور، أثار الكاتب مسألة الأطفال لأنّ المرأة لن تشعر بوجودها ولن تحتلّ مكانتها إلا إذا أنجبت الأطفال، وإنجاب الأطفال معناه البقاء في العائلة الجديدة، ومعناه أيضاً الإشراف على تسيير شؤون البيت في المرحلة المتقدّمة من العمر وإلا ستضحي المرأة أجنبية عن الأسرة<sup>(2)</sup>.

وتفاديا لوقوع شابحة في هذا المأزق، لجأت سمينة، في "الأرض والدم"، بمساعدة قامومة – العجوزين اللتين كان يُنتظر منهما أن تتمسّكا بالعادات كأشدّ ما يكون التمسك وأن تحافظا على سمعة العائلة – إلى مخالفة القرية التي لا تبيح الحبّ بين شخصين لا تربطهما روابط العلاقة الزوجية، فما بالنا إذا كان العشيقان متزوّجين كما هو الحال بالنسبة لشابحة وعامر أوقاسي. كان كلّ ذلك، كان التخطيط وكانت اللعبة وكانت الأخطار من أجل الحصول على ولد سبب طول عمر المرأة المتزوّجة، وعادت الكلمة الأخيرة للتقاليد التي منعت حبّ عامر وشابحة من أن ينضج بغير قيود. وكانت ذهبية هي المرأة الإغيلنزمانية الوحيدة التي تحدّثت تقاليد القرية في هذه المنطقة بالذات، أحبّت عامر ولم تُخفِ حبّها ولم

1 - Mouloud Feraoun, Le fils du pauvre, Editions Du Seuil, Paris, 1954, p. 23.

2 - Mouloud Feraoun, Les chemins qui montent, Editions Du Seuil, Paris, 1957, p. 50.

تسأل نفسها حول مصير هذا الحبّ، عكس أمّها مألحة التي لا ترى كمال المرأة إلّا في الزّواج، ورغم تباين وجهات النّظر بين الأمّ والبنّت إلّا أنّ المواجهة لم تحدث، لا الدّين ولا السنّ كانا سببا في نشوء سوء تفاهم بين المرأتين: مألحة العجوز المسلمة وذهبية الشّابة المسيحية.

ويُضيف فورولو في موضوع الزّواج : « ستزوّج قريباتي مثل أخواتي تماما، يبدو الأمر طبيعيا، نلد نتزوّج نموت بنفس الطّريقة »<sup>(1)</sup>. بعد الولادة زواج، وبعد الزّواج موت، الطّواهر الثّلاث متتالية ومتشابهة، الولادة والزّواج والموت كلّها أمور طبيعية. وما الفائدة من الحديث عن الدّات وما تريده، عن الألم والأمل في مؤسسة لا تعترف بفردية الشّخص ولا تبالي بميول النّفس، المهمّ هو الخضوع لأوامر القرية وتحقيق المصلحة العامة، وما عدا ذلك تمرّد وانحراف. ونستشفّ في ملاحظات الكاتب حول الزّواج نبذة عن الرّضا : الكاتب غير راض عن الزّواج، كيف يتمّ الزّواج في قريته، لكنّه لا يقول رأيّه بصراحة.

حياة المرأة إذن صعبة وصعبة جدّا، ولا يرد حديث عن المرأة إلّا وورد معه حديث آخر عن الموت والجنون والمأساة والشّحوب والدّبول:

الجّدّة ماتت

نانا ماتت

خالتي جُنّت ثمّ ماتت

قامومة ماتت

رحمة جُنّت ثمّ انتحرت

وتبقى حياة نانا مأساة حقيقية تتلخّص في الاستيلاء على إرثها وهجرة زوجها والموت أخيرا، ولم تسعد بأيّة مرحلة من مراحل حياتها ولم تعرف شيئا آخر ما عدا التّيئم والهجر والموت<sup>(2)</sup>:

أ – فتاة يتيمة: حُرمت من عناية الأمّ واستولي على نصيبها من الميراث.

ب – امرأة: تركها زوجها مرتين لينضمّ إلى مجموعة المهاجرين إلى فرنسا ولينسى تماما ذكرى نانا.

1 - Mouloud Feraoun, Le fils du pauvre, op. cit., p. 23.

2 - Najet Khadda, Répréhension de la féminité dans le roman algérien de la langue française, OPU, Alger, p.25.

ج - أم : حملت في بطنها طيلة شهور جثّة هامة رافقتها إلى القبر.  
وعرض الكاتب، في "الدروب الوعة"، حالتين لامرأتين رحمة وأخت  
رحمة.

رحمة هي امرأة عانس، مؤمنة وساذجة، وبدون شكّ لم تعرف الحبّ،  
وبكلمة واحدة هي امرأة كغيرها من نساء إغيل نزمان :

1 - عاشت في إغيل نزمان، في هذه البقعة الأرضية الضيقة والمغلقة على  
العالم والمتوقعة على نفسها.

2 - لم تعبر يوما الجدول الذي تعرفه بالاسم فقط لكي تتطلّع على ما يجري  
في الربوة المواجهة للقرية، ولم تر عيناها سوى القرية والنهر.

3 - انتحرت لتضع حدّا لمحتنها.

ونلتمس، في "الدروب الوعة"، تعاطف عامر نعمر مع رحمة، لم يكن  
انتحار رحمة خطأ أو إجراما ولم تقتل بقتل نفسها الناس جميعا مثلما جاء في  
القرآن « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ».

وكما كان عامر متفهّما انتحار رحمة، كان معجبا أيضا بشخصية أخت  
رحمة، لم يعط اسما لأخت رحمة، إنّها امرأة مجهولة تعمل في الخفاء، ولا تختلف  
في ذلك عن باقي نساء القرية.

خاضت أخت رحمة بكلّ جرأة وشجاعة معركة قاسية من أجل البقاء، ولم  
يهمها خشونة يديها وقدميها، ولم يهمها توتر قسمات وجهها وبروز عروقه، كلّ ما  
يهمّها هو أن تحيا فقط، وإذا كانت رحمة قد استنجدت بالموت وكان عذرها الوحيد  
هو الجنون، فأخت رحمة تشبّثت كأقوى ما يكون التشبّث بالحياة.

ماتت رحمة وماتت نانا وهي تضع مولودها وماتت خالتي بصدمة نفسية،  
كلّ ذلك حدث في غياب العناية الطبية.

حاول الكاتب أن ينتقد نظرة الريفيين إلى المرأة، ينتقد ثم يبرّر، فمثلا يتساءل  
فورولو عن سبب إلحاح القرية على تسمية رمضان ولونيس "بأبناء شعبان" رغم وفاة  
شعبان منذ سنين طويلة. لماذا لا يطلق عليهما اسم "أبناء تسعديت" ؟ ويقف فورولو  
عند هذا الحدّ ويمر إلى تبرير موقف القرية من القضية ويقول بأنّ تسمية "أبناء  
شعبان" تذكّر الناس دائما باستمرارية العائلة ولا خطر عليها من داء الانقراض، أهل  
منراد أحياء "يرزقون".

وفي "الدروب الوعرة" أيضا اكتفى بالوصف والتبرير حين يلخص حياة الفتاة القبائلية في الاجتماعات اليومية وفي الضحكات (les rires)، التزاحمات (les bousculades)، الأسرار (les confidences)، الكلام (les potins) والافتراءات (les calomnies)، ويقول إنَّ كلَّ هذا يتم في موضع اللقاءات النسائية وكلَّ هذا هو الحياة<sup>(1)</sup>، حياة بسيطة وبعيدة عن كلِّ تعقيد أو تمرد أو تشكك لأنَّ هناء أو شقاء المرأة – كما تقرَّ مالحة – مكتوب على الجبين<sup>(2)</sup>، وتبقى أفراحها وأحزانها وتساؤلاتها وميولها مجهولة ومسجونة للأبد<sup>(3)</sup>.

هكذا كان موقف الكاتب في هذا الموضوع وفي موضوعات كثيرة أخرى، موقف مبرر « يعلق، يؤيد، يفسر »<sup>(4)</sup> ولا يطلق الحكم أبدا.

يبدو التطور واضحا في انتقاء الشخصيات النسائية من "ابن الفقير" إلى "الدروب الوعرة":

| الرواية وبطلها             | المرأة                                    | علاقتها بالبطل                                   |
|----------------------------|-------------------------------------------|--------------------------------------------------|
| ابن الفقير<br>فورولو       | تسعديت<br>فاطمة<br>نانا<br>خالتي<br>حليمة | جدّته<br>أمه<br>خالته<br>خالته<br>زوجة عمه لونيس |
| الأرض والدم<br>عامر أوقاسي | قامومة<br>ماري<br>شابحة                   | أمّه<br>زوجته<br>عشيقته                          |
| الدروب الوعرة<br>عامر نعمر | ماري<br>مالحة<br>ذهبية                    | أمّه<br>جارتها وأمّ حبيبته<br>حبيبته             |

1 - Mouloud Feraoun, Les chemins qui montent, op. cit., p 31.

2 - Idem, p. 47.

3 - Najet Khadda, Répréhension de la féminité dans le roman algérien de la langue française, op. cit., p. 33.

4 - Mohamed Cherif Chebalou, Les antagonistes culturels en Algérie à travers les écrits romanesques de 1945 à 1956, DEA nom Pub, Université d'Alger, 1983, p. 98.

اكتفى فورولو الخجول، في "ابن الفقير"، بحضور جدّته وأُمّه وخالته ونانا أي المرأة القرية، وأضاف مولود فرعون، في "الدّروب الوعرة"، المرأة الزّوجة والعشيقَة ليُدْرَج أخيرا المرأة الحبيبة في "الدّروب الوعرة".

وتبقى المرأة الأمّ حاضرة في الرّوايات الثلاث، الأمّ هي المرأة الوحيدة التي تسمح لها التقاليد القبائليّة بأن تكون إلى جانب ابنها من صغره إلى كبره. ذكر فورولو شابحة ابنه عمّه وصديقته الأولى ولكنّه لم يطل الحديث عنها، وصف بإيجاز هزلها وذكاءها وتعلّقها به.

وإلى جانب الأمّ، تقف الجدّة وقفة قوية وإن غابت عن الأنظار، ولا تزال قائمة القربيات طويلة: حليلة زوجة عمّ فورولو، طيطي وبايا أختاه... الخ.

اجتاز مولود فرعون صلة القرابة التي طغت على "ابن الفقير"، وتناول صلة الزّواج وصلة الحبّ خارج الزّواج في نصّيه الرّوائيين "الأرض والدّم" و"الدّروب الوعرة"، وتتّسع بذلك علاقات الرّجل بالنّساء في إغيل نزمان لتحتوي الأمّ والأخت والزّوجة والعشيقَة والحبيبة، وفي كلّ الحالات هنّ نساء خادِمات (travailleuses).

#### \* العمل النّسائي وتطوّره:

جاء في نصّ مولود فرعون: تأجير حمالة للماء، من تكون هذه المرأة ونحن نعلم أنّ « التقاليد تمنع امرأة من عائلة طيّبة أن تمارس نشاطا مدفوعا »<sup>(1)</sup>. لا ينطبق الأمر على كلّ نساء القرية، لكلّ قاعدة استثناء، والاستثناء هنا يتمثّل في المرأة المحرومة. تعترف الجماعة للمرأة المحرومة من الموارد بحقّ العمل الذي يمنحها كرامة ربّ الأسرة.

ويمكن أن نميّز بين مجموعات ثلاث من نشاطات المرأة<sup>(2)</sup>:

1 - صيانة الأسرة (العناية بالأطفال - التدبير المنزلي - التموين بالماء - الطبخ - تسيير الذخيرة).

2 - النّسيج والفخار: نسيج بعض الملابس والأغطية، صناعة معظم الأوعية المنزلية، وهي أعمال تدخل في إطار البيت.

1 - Hélène Balfet, Travail féminin et communauté villageoise au Maghreb, in la communauté en Méditerranée, l'Harmattan, Paris, 1982, p. 113.

2 - Idem, p. 110.

### 3 - نشاطات تضمن إنتاج العائلة في قطاعات محدّدة (تربية الحيوانات - الحصاد - حمل الحطب).

الأعمال الأولى دائمة وتخضع، في الدّرجة الأولى، لعدد المستهلكين، والمجموعتان التاليتان الثّانية والثّالثة تتّمان وفق تقسيم موسمي، النّسيج مثلا يكون عادة في فصل الشّتاء والفخار في بداية الصّيف، والأعمال كما نلاحظ « موزّعة على أيام السّنة بكيفية تسمح للمرأة بمواجهة كثرة الأعمال المؤقّتة والدّائمة »<sup>(1)</sup>.

وفي كلّ رواية من روايات مولود فرعون تصادفنا شخصيات نسائية تمارس أحد النشاطات أو بعضها، وهي على التّوالي:

| الرواية        | الشّخصية | وضعيتها | نشاطها                               |
|----------------|----------|---------|--------------------------------------|
| ابن الفقير     | ملخير    | عازبة   | جني الزيتون                          |
|                | سمينة    | عازبة   | جني الزيتون                          |
|                | خالتي    | عازبة   | النسيج والفخار                       |
|                | نانا     | متزوجة  | النسيج والفخار                       |
| الأرض والدّم   | شابحة    | متزوجة  | تربية الحيوانات وأعمال أخرى في الحقل |
| الدّروب الوعرة | مالحة    | أرملة   | جني الزيتون<br>حمل الماء             |

لم تتوجه مالحة إلى جني الزيتون أو حمل الماء بدافع التخصّص أو المهارة ولكن بدافع الحاجة. مالحة أرملة وخالتي ونانا أيضا تعيشان وحدهما، الثّلاث مجرّدات من الدّعم العائلي وملزمات بتوفير قوّتهن على خلاف شابحة التي لا تعاني من النّقص وإنّما خرجت إلى الحقل لكثرة الأعمال فيه ولعدم انشغالها بتربية الأطفال.

وباستثناء شابحة تكون المرأة العاملة خارج البيت هي المرأة المحتاجة كما هو الحال بالنّسبة لمالحة ونانا وخالتي اللّواتي لم يسعين إلى العمل من باب التكملة

1 - Hélène Balfet, Travail féminin et communauté villageoise au Maghreb, op. cit., p. 110.

وإنّما يمثّل نشاطهنّ مجموعة مواردهنّ. ولقد سبقّت أن ألقّت الرّوائية الاستعمارية ماري بجوجا (M. Bugeja) بمعية روائيات أخريات إطلالة على عالم المرأة الجزائرية وخرجن بمجموعة من الاستنتاجات، أهمّها<sup>(1)</sup> :

1 - التّوزيع غير العادل للعمل: العمل للفقيرات والبطالة للغنيات.

2 - الأقلية الغنية غير المنشغلة، تشغل الأغلبية المستعبدة في أعمال صعبة.

وكانت صورة المرأة الفقيرة والحزينة التي تقوم بأعمال شاقة صورة مشتركة بين نتائج استعمارية كثيرة. وبدلاً من أن يكون عمل المرأة عنصر تقويم أو إعادة اعتبار وفضيلة طاهرة وتعبير عن القدرة، كان العمل، بالنسبة للمجتمع النسائي المتيسّر لكي لا نقول البرجوازي، ذلاً وإهانة. ولم يكتس عمل المرأة الجزائرية إلّا معنى واحداً هو التّمييز بين الغني والفقير<sup>(2)</sup>.

لم نُطلعنّا رواية "الدّروب الوعرة" على ردّ فعل أهل القرية تجاه عمل مألحة كأجيرة عند الرّئيس، هل هم راضون أو رافضون ؟ وهل عمل مألحة لا يخلّ بالنّظام القديم؟ بينما يشير الكاتب، في "ابن الفقير"، إلى تدعيم رمضان لعمل الخاليتين في صناعتيّ الزرابي والفخار<sup>(3)</sup>. ربّما يدرك في قرارة نفسه أنّ إنتاج نانا وخالتي يحقّق معونة صغيرة لأسرته التي لم يعد قادراً على تلبية طلباتها وربما أيضاً يدرك أنّ الفخار والنّسيج يضمن مؤونة الخاليتين وهو همّ ينزاح<sup>(4)</sup>.

تُشارك الخالتان وشابحة ومألحة، كلّ واحدة بطريقتها الخاصة، في النّشاطات الإنتاجية للعائلة بشكل منظمّ وعادي. ويمكن أن نقول إنّ أسرة خالتي فورولو تمثّل وحدة الإنتاج (Unité de production) ووحدة الصّناعة التقليدية (Unité artisanale)، ولا تتلقّى الخالتان نقوداً مقابل الأواني الفخارية بل تقايض الأواني الصّغيرة بمثلها شعيراً، والجرار الصّغار تبادل بنصف صاع (عشرة لترات) والجرار الكبرى بصاع كامل.

ومن رواية "ابن الفقير" إلى "الدّروب الوعرة" يتطوّر عمل المرأة القبائلية وتفتح ميدان طبقة الأجراء، حيث تبتعد مألحة عن الصّناعيتين المعهودتين (النّسيج

1 - Sakina Messaâdi, Les romancières coloniales et la femme colonisée, ENAL, Alger, 1990, p. 76.

2 - Idem., p. 78.

3 - Mouloud Feraoun, Le fils du pauvre, op. cit., pp. 48 – 49.

4 - Idem., p. 48.

والفخار) الأسباب مجهولة، وتلتقط الزيتون عند السيّد الرّئيس أو تحمل الماء لعائلة آيت سليمان، ثلاث جرار يوميا مقابل مبلغ مالي يقدر بألف فرنك كلّ شهر<sup>(1)</sup>.

المرأة القبائلية امرأة خادمة، تختلط دائما مع الرّجال شأنها شأن معظم المجتمعات الزراعيّة حتّى وإن لم يكن أساس العلاقة هو الحرّية، حيث توجد أماكن خاصّة بالرّجال (تجمعت) وأماكن خاصّة بالنّساء (ثالا)، ولا يقتصر دورها على ممارسة الحبّ ولا على إنجاب الأطفال، وفوق ذلك لها مقدرة عالية على تحمّل الصّعب والتّعاسة.

---

1 - Idem., p. 61.

## قائمة المصادر والمراجع

### 1 – المصادر :

1. Mouloud Feraoun, Le fils du pauvre, Editions Du Seuil, Paris, 1954.
2. Mouloud Feraoun, Les chemins qui montent, Editions Du Seuil, Paris, 1957.
3. Mouloud Feraoun, La terre et le sang, Editions Du Seuil, Paris, 1952.

### 2 – المراجع :

1. Najet Khadda, Répréhension de la féminité dans le roman algérien de la langue française, OPU, Alger.
2. Mohamed Cherif Chebalou, Les antagonistes culturels en Algérie à travers les écrits romanesques de 1945 à 1956, DEA nom Pub, Université d'Alger, 1983.
3. Hélène Balfet, Travail féminin et communauté villageoise au Maghreb, in la communauté en Méditerranée, l'Harmattan, Paris, 1982.
4. Sakina Messaâdi, Les romancières coloniales et la femme colonisée, ENAL, Alger, 1990.